موسيقى

حضرت «شيد قصورك» للشيخ إمام في مليونيات الربيع العربي، وفي التظاهرات الاحتجاجية في مصر و تونس ولبنان، ولها مكانتها التاريخية بين جماهير اليسار العربي، الذي رأى أن استدعاء الشيخ إمام إلى الساحل الشمالي يمثّل استخفافاً بالمضامين التي تحملها الكلمات

شيّد قصورك غناء على الساحل

هيثم أبوزيد

استطاعت فرقة «شكون» الغنائية التي انطلقت عام 2014، على يد الشاب السوري المقيم في ألمانيا، أمين خاير، أن تحقق نجاحاً سريعاً، تجلّى في الأعداد الكبيرة التي تحضر حفلات الفرقة في مدن أوروبا أو في الدول العربية. لكن، طيلة عشر سنوات، لم توضع الفرقة تحت الضوء الإعلامي، ولم تستطع أن تثير جدلاً واسعاً، إلا بعد أن أحيت حفلها الأسبوع الماضي في منتجع سيلفر ساندس في مدينة العلمين الجديدة، بالساحل الشمالي المصري، وتحديداً عندما أدى خاير أغنية «شيد قصورك» التي كتبها الشاعر أحمد فؤاد نجم، ولحنها وغناها الشيخ إمام عيسى منذ أكثر من نصف قرن.

أثار أداء الأغنية، وسط رواد منتجعات الساحل الشمالي المعروفين بالثراء والترف، ردة فعل واسعة بين رواد مواقع التواصل الاجتماعي، الذين اعتبروا أن أداء أغنيات إمام عموماً، و«شيد قصورك» خصوصاً، بين أبناء هذه الطبقات المترفة على شواطئ المنتجعات الفارهة، يمثّل استخفافاً بالأغنية التي ترصد كلماتها مظاهر هذه التناقضات الطبقية، بالقصور المشيدة على المزارع. كما ترصد مظاهر الصراع بين القوى الثورية التقدمية وبين الأنظمة الاستبدادية المتسلطة التي تلقي بالأحرار في غياهب الزنازين، وتستبدل الحدائق بالسجون.

كانت «شيد قصورك» حاضرة دائماً في مليونيات الربيع العربي، وفي التظاهرات الاحتجاجية في مصر وتونس ولبنان، ولها مكانتها التاريخية والأدبية والفنية بين جماهير اليسار العربي، الذي رأى أن استدعاء الشيخ إمام إلى الساحل الشمالي وعبر تلك الأغنية تحديداً، يمثّل استخفافاً بالمضامين التي تحملها كلمات صاغها أحمد فؤاد نجم، الشاعر الذي انحاز دائماً إلى الطبقات الفقيرة، وسخر كثيراً من مظاهر الترف ومن المترفين أنفسهم: «يعيش التنابلة في حي الزمالك.. قفاهم عجينة.. كروشهم سمينة».

رأى كثيرون أن الأغنية أفرغت من مضمونها ومن حمولتها الثوريّة حينما أداها من ينتمون إلى طبقة لم تعرف معنى المعاناة يوماً، وكانت دائماً حليفاً أو ظهيراً للسلطة السياسية، بل إن بعض المعترضين رأى أن جماهير الساحل الشمالي الذي سماه المصريون بـ«الساحل الشرير»، هم بالفعل يتنعمون ويترفهون ويقيمون حفلاتهم في قصور وفنادق شيدت على مزارع الفقراء من أهل المنطقة. أي إن الأغنية في معناها الحرفي المباشر تنطبق على هؤلاء الذين تفاعلوا معها وتمايلوا مع إيقاعها.

للجدل الذي أثاره غناء «شيد قصورك» في منتجع ترفيهي جذور قديمة، فالنقاش لم يهدأ منذ أكثر من قرن حول الغناء والموسيقى، ومدى أهمية حملهم دوراً رسالياً أو قيمياً. وكما انزعج كثيرون من استدعاء إمام ونجم بمكانتهما اليسارية إلى «الساحل الشرير»، يرى آخرون كثرٌ أن الغناء ليس له غاية إلا التطريب والانسجام والأنس بالأداء أو النشوة بالإيقاع، وإذا كان بعض الأغنيات جاء عبر سياق سياسي واجتماعي، فإن بقاءها واستمرارها واستدعاءها وتمتع الجماهير بها ليس مشروطاً ببقاء السياق السياسي والاجتماعي الذي ظهرت فيه.

في هذا السياق، ترى المطربة والباحثة فيروز كراوية أن الجدل الذي ثار حول تقديم أغنية «شيد قصورك» في الساحل الشمالي يعد انعكاساً متعدد المرايا لرحلة المنتِج الفني منذ لحظة ميلاده، وصولاً إلى تداوله في سياقات متعددة زمانياً ومكانياً وجيلياً، وفي ما يتعلق كذلك بالوسائط التي يقدم عبرها المنتج، والتحولات التي مرت بها تلك الوسائط. وفي رأي كراوية، لا يوجد مبرر منطقي يمنع من تداول أغنيات وأعمال تتناول حياة البسطاء وهمومهم لدى شرائح لا تعاني الهموم ذاتها تاريخياً، من أغاني سيد درويش إلى أفلام نجيب الريحاني ومسرحيات عادل خيري. هذا التداول العابر للطبقة من عاديّات الفنون وليس من استثنائياتها، إذ يمكن تخيل أن هذا الانتقال يقارب بين العواطف والتصورات، ويساهم في تفهم صور المعاناة الإنسانية ليس بالضرورة بين من تنطبق عليهم بصورة حصرية، وإلا انتقلنا إلى محاكمة المنتجين أولاً، فعادل إمام لم يكن ينتمي إلى البسطاء الذين تصدروا البطولة السينمائية لعقود عبر ما جسد من شخصيات، ولا كان محمد عبد الوهاب من عشاق «عيشة الفلاح» بالضرورة. الناقد الموسيقي فادي العبد الله يلفت الانتباه إلى موقف الفيلسوف وعالم الاجتماع والموسيقي الألماني تيودور أدورنو الذي يرى أن نظام الإنتاج ينتهي إلى تفكيك الأعمال الجديدة فعلاً وإلى استتباع شذراتها في إطار الاستهلاك الجماهيري الواسع الذي يقدمه. يشير العبد الله إلى أن استخدام أغنية للشيخ إمام في حفل للمرفهين في الساحل الشمالي لم يكن المحاولة الأولى لمثل هذا الاستتباع. يقول: «فلنتذكر أن أولى المحاولات أرادت دمج إمام ونجم في إطار الإذاعة المصرية، أيام عبد الناصر، وتقديم أعمالهما بأصوات مطربي تلك الفترة، بهدف تقليل حدتها النقدية أيضاً. هل يمكن الوقوف مثلاً ضد هذه المحاولات؟ لا أحسب ذلك». ويتساءل: «من يمكن أن يمنع الآن استخدام ألحان موتسارت في دعاية للشوكولا أو فيفالدي للبيتزا؟ ربما لو كان لدينا نظام أفضل لحماية حقوق الملكية الفكرية لأمكن لبعض الورثة الاعتراض. لكن أبعد من هذا الاعتراض الآني، لا أحسب أن بالإمكان المنع التام لهضم النظام الاستهلاكي حتى لما كان نقداً عالي الصوت ضده. أليست القمصان بصور ماركس وتشي غيفارا تباع وتشرى في النظام الرأسمالي؟».

رحب بعض محبي الشيخ إمام باستدعاء الأغنية إلى الساحل الشمالي (فيسبوك)

> رأى كثيرون أن الأغنية أفرغت من مضمونها ومن حمولتها الثورية
>
> تقديم الأغنية في الساحل يعد انعكاساً لرحلة المُنتَج الفني

ولعل من الضروري أن ينتبه من يرصد حالة «التناقض» بين «شيد قصورك» وبين جمهور الساحل إلى صعوبة مد هذا الخط النقدي على استقامته. وإلى هذا الجانب، تشير فيروز كراوية إلى أن الملياردير المصري نجيب ساويرس كان أحد أطراف صداقة معلنة وطويلة مع الشاعر أحمد فؤاد نجم. كما أن الفريق نفسه، المكون من فنان سوري يعيش بألمانيا، التي أتاها لاجئاً، وفنان ألماني، من الممكن -وبمنطق المعارضة نفسه- أن يصبح وجوده في المنتجع السياحي إشكالياً من وجهة نظر هواة المحاكمات من هذا النوع. ولكن من وجهة نظر أخرى، يعرف العاملون في مجالات الفنون أن آلية العمل والانتشار والاستمرار تعتمد، أساساً، على توسيع شبكات العرض، والسعي نحو الفرص الأكبر والأكثر ربحية، في معظم الحالات. في رأي كراوية، يمكن الدفع أيضاً بأن العمل لم يقدم في السياق نفسه الذي أسقط عليه في ما بعد، ولا يحتمل الأمر هذا التأويل المفرط، فلا السياق ولا الجمهور كان مدركاً تماماً لمرامي الكلمات ولا ظروف تقديم الأغنية الأصلية.

تقترح كراوية سياقاً فنياً لأداء الأغنية بين رواد الساحل الشمالي: «يمكن تخيل أنها مجرد أغنية ضمن برنامج الفريق تحمل شحنة إيقاعية استعملوا معها إيقاعات التكنو التي تلائمها تماماً، وتحمل سمات تعبيرية حدية على طريقة الراب الذي أصبح أكثر شيوعاً، قدمت ضمن برنامج متنوع للفريق بلا تمهيد أو سياق محدد. فالأغنية الأصلية كانت موجهة إلى حاكم يمثل احتكاره الثروة خطراً على المصلحة العامة، من وجهة نظر مقدمي الأغنية الأصلية، على عكس سياق الاستقبال الحالي، الذي اتهم جمهور الحفل ضمنياً بانتهاج السلوك نفسه، وربما المطروح إذن هو تحميل المتهم بمسؤولية مشاعية لا نستطيع تعيين حدودها، ولكنها تغذي حالة عامة جاهزة لاستقبال هذه المشاعر». توضح كراوية أن ما نسميه ترندات لحظية تستمر يوماً أو يومين على الأكثر على شبكات التواصل، هو قطعة «بازل» في سياق واسع لصراعات المواقع الاجتماعية. والمنتج الفني في هذه الحالة يمثل سطحاً لإسقاطات متنوعة، بحسب موقع كل فئة. وربما رأى بعض أصحاب المواقف فيه فرصة لتأكيد مشاعر الاضطهاد الطبقي، واتساع الفوارق الطبقية ضمن سياق أزمة اقتصادية كبيرة، وفرصة لانتزاع «تمثيل» البسطاء.

أديل في ميونخ... تلك البافارية الشقراء

علي موره لي

ثمّة ما يجمع المدينة الألمانية ميونخ، عاصمة ولاية بافاريا الجنوبية، ونجمة غناء البوب البريطانية، أديل أدكينز (36 عاماً) المعروفة باسمها الأول، أديل (Adele)؛ إذ اختارت الأخيرة المدينة لتكون محطة انطلاقة جولتها الأوروبية على امتداد شهر أغسطس/آب الحالي، ليس من دون دلالة تستحق التأمل.

أقيم الحفل على أرض منشأة ميونخ للمعارض (Messe München)، وهي واحد من بين أكبر الميادين في العالم المخصصة لتنظيم المعارض الدولية والتظاهرات الكبرى والعروض الحية. اختير للحفل الجزء الخارجي المفتوح الذي يمتد لمساحة 400 ألف متر مربع، وتصل سعته إلى قرابة 80 ألف متفرّج. ضماناً لمشاهدة حية تحظى بها جموع الحاضرين كافة، نُصِبت في الواجهة المنصة شاشات تلفزيونية عملاقة، بثّت مشهد الخشبة وعليها الفنانة والفرقة الموسيقية تؤدي مجموعة من أشهر أغانيها، إضافةً إلى الساحر المبهر من المؤثرات البصرية.

لطالما يشيع بين الألمان النظر إلى ولاية بافاريا ومدينة ميونخ على أنها إقليم العزّ والجاه وأصالة القيم الأرستقراطية والبرجوازية الأكثر محافظةً اجتماعياً وثقافياً، وحتى دينياً. فهي إضافة إلى كونها المدينة الأكثر كلفةً للعيش في ألمانيا، لا تزال تحمل بعضاً من إرثٍ عتيق مما يُعرف بعهد الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1392-1505) ذي التراث المسيحي الكاثوليكي والسلالة الممتدة لأجيال من أباطرة وملوك وأمراء دوقيّات.

ذلك على الرغم من أن الإقليم الجنوبي ذا الطبيعة الجبلية الساحرة والوعرة، لم يتحوّل في الأزمنة الحديثة إلى معين غِنى وبحبوحة اقتصادية في أوروبا والعالم، إلا بعد أن بُنيت فيه صروح صناعة السيارات الألمانية الكبرى في الربع الثاني من القرن العشرين، فانتشلت اقتصاده من قطاع زراعيّ قروسطي مُحتضر، بات غير قادر على منافسة الماكينة الزراعية، التي أطلقتها الثورة الصناعية في الأراضي السهلية الواسعة من الأقاليم الوسطى والشمالية.

هناك، في الوسط والشمال أخذت الطبقة الوسطى والعاملة منذ نهاية القرن التاسع عشر تتصدّر المشهد صابغةً ألمانيا بطابع الدولة الوطنية الحديثة ذات الأغلبية البروتستانتية والتوجّه العلماني المتبنّي لاقتصاد السوق وقيم دولة الرفاه بهواها الليبرالي ومظهرها الثقافي والاجتماعي الأقل محافظة والأكثر تقشّفاً. لتبقى ولاية بافاريا، وعاصمتها ميونخ، في الوعي الجمعي الألماني منذئذ، إضافةً إلى كونها موطناً أصلياً لمشروب البيرة الوطني، مخيالاً من وحي الماضي والأساطير الجرمانية القديمة وواجهةً فارهة تعكس ذائقة النخبة الاقتصادية مُحدثة النعمة (السنوب) الأكثر تبرّجاً وتبجّحاً.

> تتمتع النجمة البريطانية بسمات أوروبية خالصة بيضاء وشقراء

من هنا، فإن شخصية أديل الفنية، أي البيرسونا، بحضورها في ميونخ، لها أن تحمل رمزية خاصة؛ إذ تتمتع النجمة البريطانية بسمات أوروبية خالصة بيضاء وشقراء، كذلك فإنها تسعى من بين نجمات البوب للظهور بمظهر أكثر تقليدية، يكاد يمكن أن يوصف بفيكتوريّة جديدة (Neo-Victorian) نسبة إلى عهد الملكة البريطانية فيكتوريا (1837-1901) الذي راجت خلاله بين أفراد الطبقة البرجوازية عادات الاحتشام والانضباط، سواء لجهة الملبس أو المسلك. وعليه، باتت إلى اليوم، الحقبة المرجع بالنسبة إلى التيار المحافظ في بريطانيا والغرب بصورة أعمّ.

تلك الصلة الرمزية كانت مراسلة القناة الألمانية الثالثة 3sat الصحافية هايكه بترسون قد أوحت بها في معرضِ تقرير أعدّته لبرنامج زمن الثقافة (Kulturzeit) استبق الجولة الفنية المرتقبة. حاورت فيه أديل، التي أطلّت من خلاله وقد تأنّقت على غرار واحدة من سيّدات الأسرة الملكية البريطانية، وتحدّثت كما تتحدث دوقات إنكلترا، تصف معاناتها مع الشهرة جرّاء كونها شخصية تلاحقها الأضواء، وعن سعيها المضني لتحقيق التوازن ما بين حياتها الخاصة الأسريّة والعامة الفنيّة، ما حدا بيترسون إلى أن تختم تقريرها معلّقةً: «صيفٌ أديل في ميونخ، صيفُ الشهرة، والحُسْن والحنين إلى الماضي».

حتى أديل نفسها، أو ربما أحد وكلائها ومنتجيها، تبدو كأنها قد التقطت الصلة الرمزية تلك، فقد نشرت في 8 مايو/أيار الماضي صورة على صفحتها على «إنستغرام»، تظهر فيها مرتدية ما يشبه الزيّ الفلكلوري لإقليم بافاريا المعروف باسم «دريندل» (Drindl) تحمل في يد كأس بيرة عملاقة، واليد الأخرى تمسك بصحن جبن، فيما اصطفت حوله كعكات البريتزل؛ إذ تُعدّ جميعها من بين التنميطات الأشد سياحيّةً التي تشتهر بها تلك البقعة من ألمانيا.

أثارت الصورة جدلاً واسعاً على شكل عاصفة من التعليقات، منها الساخر ومنها الغاضب. أما السبب، فهو أن الصورة من إخراج تطبيقات الذكاء الصناعي التوليدي المتوافرة في الإنترنت، الأمر الذي جعلها مشوبةً بمُغالطات وتناقضات بادية للعيان، إذ لم تكن الأزياء بافاريّة خالصة، بل مسخاً رقمياً جمع في بعض تفاصيله بين نسيج القماش ووريقات الخس.

أقيم الحفل على ارض منشاة ميونخ للمعارض (كيفن مازور/ Getty)